العقيده الدينية والشخصية المصرية
رؤيه اجتماعية فى ضوء المعطيات التاريخية

دكتور : السيد حنفى عوض
مدرس علم الاجتماع ـ كلية الآداب بسـوهاج

على الرغم من أن المنهج العلمى بمعناه المعروف اليوم ، لم يظهر إلا حديثاً ، إلا أن التاريخ يدلنا على أن كثيراً من المفكرين قد دعوا إلى استخدام مناهج منظمة فى دراسة المسائل الإجتماعية وان كانت تلك المناهج تعتمد على أساليب القياس المنطقى ، ومن المستحيل أن نكتفى بالإعتماد على قدرتنا على هذه الأساليب كالاستدلال والاستقراء و الاستنباط للكشف عن القوانين الأساسية للطبيعة البشرية ، فذكاؤنا محدود فى قدرته على الكشف عن الأوجه الإساسية لتطور اجتماعى معقد ومركب ، دون اللجوء إلى التحليل التاريخى ، إلا أن المقارنة التاريخية للمحاولات المتعاقبة للبشرية قد لا تصبح البناء الأساسى والعلمى لعلم الإجتماع ، ولكن قد تكون القاعدة والجوهر للعلم نفسة .

وإذا كان علم الإجتماع تظاهر بتجاوز التاريخ فإنه لا يصبح علم اجتماع وفى هذا الصدد يتناول إميل دوركايم » أهمية منهج البحث القائم على المقارنة التاريخية فاعتبر هذه المقارنة الأداة الوحيدة التى يتوسل بها العالم الإجتماعى فى البحث عن كيفية تركيب وبناء المجتمعات ، وما هى الأسباب التى أدت إلى ظهورها ، ويرينا التاريخ أن تلك المجتمعات قد تكونت وظهرت للوجود بصورة تطورية تدريجية وتقدمية .

فالطريقة التاريخية تلقى أضواء على تراكم تلك الأجزاء وتجمعها ومدتها وترابطها ، والخط الذى إتبعته ، وأصولها ، وجذورها ، والإحاطة بها . وبهذا

المعنى يكون علم الإجتماع حقلا كبيرا ، بل نوعا من التاريخ المسموع وأن الروابط التى تشده بالتاريخ وثيقة وصميمة

ومن المعروف أن الباحث فى علم الإجتماع لا يستغنى عن المنهج التاريخى حيث أن الماضى أساس الحاضر وأن الظواهر الأجتماعية تتشابه إلى حد كبير مع الظواهر التاريخية فى أنها زمانية فى أغلب الأحوال ، ترتبط ارتباطا وثيقا بوقائع لمجتمع الماضية وتتأثر بها فى نشأتها ونموها (١).

ومن الضرورى هنا أن نفرق فى هذا المجال بين علم التاريخ وبين استخدامنا للمنهج التاريخى . فعلم التاريخ نوع من أنواع البحث العلمى يستهدف دراسة جهود وأعمال الإنسان فى الماضى (٢) ، أما المنهج التاريخى فيستخدم فى البحوث الإجتماعية بهدف الوصول إلى المبادىء والقوانين العامة عن طريق البحث فى أحداث التاريخ الماضية وتحليل الحقائق المتعلقة بالمشكلات الإنسانية والقوى الإجتماعية التى شكلت الحاضر . والباحث حينما يرجع إلى التاريخ فإن ذلك لا يعنى أنه يحاول تأكيد الحوادث الفردية . ولا يهدف إلى تصوير الأحداث والشخصيات الماضية بصورة تبعث فيها الحياة من جديد ، وإنما يحاول بذلك دراسة المجتمع من خلال الوقائع والأحداث والمواقف منذ نشأتها لمعرفة طبيعتها وما تخضع له من قوانين . وتعبر بولين يونج عن هذا المعنى بقولها . إننا فى البحث الإجتماعى نتعقب التطور التاريخى لكى نعيد بناء العمليات الإجتماعية ، ونربط الحاضر بالماضى ، ونفهم القوى الإجتماعية الأولى التى شكلت الحاضر بقصد الوصول إلى وضع مبادىء وقوانين عامة متعلقة بالسلوك الإنسانى للاشخاص والجماعات والنظم الإجتماعية (٣)

---

(١) عبد الجليل الطاهر : مسيرة المجتمع . بحث فى نظرية التقدم الاجتماعى ، المكتبة العصرية صيدا . بيروت . ١٩٦٦ ص ٢٣ .

2— David popenoe. Sociology.: prentic Hall, inc. New Jersey. 1980 p. 10

3— Collingwood, R. G.: The Idea of History, Oxford university press Amen House. E.C., I. 1963.

(٣) عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعى ، مكتبة وهبه، القاهرة (١٩٨٠) ص ٢٦٨

وفى ضوء هذه المعانى أجد المجال الآن مهيئا لفهم المسار التاريخى ومعطياته للشخصية المصرية وأثر العقيدة الدينية فى تشكيلها .

العقيدة الدينية : وهى تعنى الإيمان بحقيقة معينة إيمانا قطعيا لا يقبل الشك أو الجدل ، وبمعنى آخر هى الحكم الذى لا يقبل الشك فيه « عند معتقده . ومع ذلك فان العقيدة هى ما يؤمن به الانسان ويقتنع به . وقد تكون هذه العقيدة دينية أو دنيوية ، مبنية على العقل والمنطق وقد تكون بعيدا عن كليهما . المهم أنها توجه حياة الإنسان وسلوكه بما يتفق معها(١) .

أما الدين فهو نظام سلوكى يقوم على معتقدات تمثل العلاقات الخلقية المثلى بين الناس وبينهم وبين ما يعبدون . ويحتوى الدين فى أغلب الأحوال على احتفالات وطقوس وعبارات مقدسة. والدين موجود فى كل حضارة رغم اختلافه من واحدة لأخرى عقيدة وتطبيقا . ويساعد الدين من يعتنقه على تفسير الأحداث المعقدة والتى تبدو بصورة ظاهرية غير قابلة للتفسير ، ويجسد فكرة القوة فيما وراء الطبيعة ، ويستعمل الدين الاحتفالات والطقوس والعبادات والقيود الدينية ليضمن الإتصال بقوى ما وراء الطبيعة عن طريق أفراد يعتقد أن لهم قدرة أكبر على ذلك الاتصال. ولأن الدين تعبير رمزى عن النظام الاجتماعى الذى يعيش فيه أفراد المجموعة التى تدين به فانه يخلق بينهم تماسكا أقوى . ويقدم لهم مجالا أوسع للاتصال الإجتماعى ويخلق الدين كذلك نظاما من السلطة يمكن الفرد أن يميز بواسطته بين الصحيح من أعماله والخطأ منه ، ويأخذ الدين فى الشعوب البدائية أشكالا مختلفة ، فمن تلك الشعوب من يعبد إلها واحدا ومنها ما يعبد عدة آلهة وهناك شعوب تعبد أجدادها وأخرى يقوم دينها على الطوطمية(٢) ويذهب « أميل

---

(١) عبد الغنى عبود : العقيده الإسلامية والأيديولوجيات المعاصره . دار الفكر العربى . القاهرة (١٩٧٦) ص ١٧ ، ١٨

(٢) كلايد كلوكهن : الإنسان فى المرآة ، علاقة الانثروبولوجى بالحياة المعاصرة ، ترجمة شاكر مصطفى . المكتبة الأهلية . بغداد (١٩٤٦) ص ١٤٧

دوركايم » فى تحديد مفهوم الدين على أساس أنه نظام يوحد المعتقدات ويوجه السلوك نحو أشياء معنوية مقدسة(١)

نستطيع القول بأن الدين نسق من المعتقدات والممارسات يوحد بين أفراده ويحقق بينهم نوعا من التكامل الأخلاقى وتتحقق فى شكل مشاركة جمعية فى المعتقدات . وتكشف المشاركة فى الأنشطة المقدسة على هيبة اجتماعية كما تقوى شبكة العلاقات فيما بينهم .

الشخصية المصرية : تعرف الشخصية بأنها التكامل الوظيفى لكل السلوك الذى يتعلمه الفرد من قيامه بأدواره فى مجموعة إجتماعية مختلفة ، كالعائلة والمدرسة والمكان الذى يعمل فيه والذى يخلق منه شخصا مميزا ، وتتكون شخصية الفرد من مزيج من أهدافه وتصرفاته وأرائه وعاداته ومعاييره الخلقية ومدى فهمه لنفسه ومقدار تقييمه لها(٢) . ويعرف « بيسانز — Biesanz » الشخصية بأنها تنظيم يقوم على عادات الشخص وسماته وتنبثق من خلال العوامل البيولوجية والاجتماعية والثقافية . ويعنى بالتنظيم تكامل العادات والاتجاهات والسمات . ويقصد بالعادات الطرق الدائمة نسبيا التى يسير عليها الفرد فى سلوكه ، والاتجاهات هى الميول التى تظهر فى الافعال الموجهة نحو قيم معينة كالأشخاص أو الأفكار أو الأشياء أو النظم الإجتماعية . أما عند « جرين — Green » فينظر إليها على أنها التنظيم الديناميى الذى باعتباره قد تصبح الشخصية عاملا معوقا فى النمو والانتماء إلى جماعات متعددة فى المجتمع فهو يؤكد أن الإنسان يصبح شخصا نتيجة للمؤثرات الإجتماعية التى تؤثر فى كيانه الفسيولوجى والعصبى ، ولا بد له لكى يصبح شخصا أن يكتسب اللغة فالتفكير بجانب اكتساب أغراضه وقيمه ، وعلى هذا لاتقتصر الشخصية على ما يميز الشخص بل تشتمل أيضا على الشخص أى ما هو

1— Thomas F. O.: Dea, The sociology of religion, englewood cliffs. N.J. prentic - Hall 1966. pp. 1—2.

(٢) كلايد كلوكوهن ، المصدر السابق ، ص ٤٠٩

مشترك أو يشارك فيه مع الآخرين وعلى سبيل المثال فقد (١) ساعد موقع مصر الجغرافى وطبيعة تربتها ونيلها ومناخها فى تكوين شخصية أفرادها وطبائعهم إذا ما أخذنا بوجهة نظر « ابن خلدون » فى تأثير المناخ والإقليم والتضاريس فى الأمم والشعوب .

لقد حاول « ابن خلدون » إيجاد صلة بين طابع الإنسان وبنيته الجسمية من ناحية والبيئة المحيطة به من ناحية أخرى ، وهى البيئة الطبيعية والجغرافية والبيئة الإجتماعية ، فتحدث فى مقدمته عن تأثير الهواء فى أخلاق أهل مصر فوضعهم ضمن المنطقتين الحارة والمعتدلة وقد غلب على أهل مصر فى رأيه الفرح والخفة والغفلة من العواقب فهم فى رأيه « لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم بل يحصلون على عامة أكلهم من الأسواق يوما بعد آخر »(٢) .

لقد مكن موقع البلاد الجغرافى المحصن أهل مصر — عبر التاريخ — أن يعيشوا حياة هادئة إلى حد كبير . ومن البديهى أنه قد حدثت بعض الحروب والمعارك اعتبرها المصرى القديم أحدى المصائب التى حلت بالشعب ولم يهتم بها كثيرا ، ولم يتعطش المصريون نحو الأخذ بالثأر كما كانت الحال فى الشعوب الأخرى . لذلك بقيت هذه العادة غريبة عنهم . وبهذا بقيت دياناتهم خلوا من الطقوس المخيفة التى تحيد بالديانات الأخرى عن الطريق المعتدل ، ولم يكن فيها مكان لإله ظمآن نحو الدماء ، ولا طقوس تسرف فى الملذات أو الشراسة وإنما كانت طقوس تؤدى بشكل هادىء ورزين . (٣)

لقد تعلم المصرى عبر تاريخه القديم كيف يحترم تعاليم الدين والإيمان بالقوى القدسية حتى أنه فى معاناته كان يستلهم منها الصبر على هزيمته ويناجيها فى شد أزره على النصر ضد المعتدى .

---

(١) عثمان لبيب فراج : الشخصية والصحة العقلية . مكتبة النهضة المصرية القاهرة (١٩٧٠) ص ٦ ، ٧

(٢) عبد العزيز رفاعى : الطابع القومى للشخصية المصرية بين الايجابية والسلبية . دار النهضة العربية بالقاهرة (١٩٧١) ص ١٧

(٣) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، نشأتها وتطورها ونهايتها فى أربعة آلاف سنة . مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى . بدون تاريخ نشر ، ص ١١

لقد كانت مصر عبر التاريخ أرض السلام ووادى الرخاء حتى أن المصريين القدماء فتنوا بواديهم الأخضر وسموه أكثر من إسم ، فهو أى مصر – عندهم « كيمة » أو السمراء ، « وتاكيمة » أى الحمرية ، و « تاوى » أى الأرضين و « أيدبوى » أى الضفتين . ولم يكتفوا بهذا كله بل أضفوا عليها من ولعهم صفات شاعرية وقدسية فقالو « إيرة رع » أى عين الشمس أو عين رب الشمس . وقالوا « وجاة نثرو » أى عين رب الأرباب و « أترتى » أى ذات المحرابين و « باقة » أى الزيتونه فهى خضراء دائما .

أما جيرانهم من كنعانين وآشوريين وفينيقيين وبابليين فكانوا يسمونها مصرى ومشرى ومصرم ومصرايم ومصريين وختمها القرآن الكريم بلفظة مصر (١) ويعلق « الكندى » على هذا بقوله « لا يعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى الله عليه فى القرآن بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر . أجل . فلقد كانت مصر فضلا فى تاريخ كل دين . على أرضها كلم الله موسى وبعثه لهداية العالمين ، وأقبل عليها يسوع فى المهد وكانت به اسبق المؤمنين ثم صارت من بعد حصن الإسلام ومعقله الحصين(٢) .

التنشئة الإجتماعية والشخصية المصرية :

ربما هذا العنوان السابق يجعل أمامى سؤالا ملحا .. وهو . هل التنشئة الإجتماعية فى مصر الفرعونية بكل ما حملته من معانى تربوية هى التى اسهمت فى تحديد الشخصية المصرية عبر هذه الحضارات ؟ وكما نعلم أن التنشئة الأجتماعية هى العملية التعليمية التى ينمو بها الفرد ويتطور إلى كيان إجتماعى قادر على أداء وظيفته الإجتماعية ، ومن خلال هذه التنشئة يتطور الحيوان البشرى الذى يولد عاجزا لا يدرك من أمره شيئا ، فهو لا يستطيع أن يشكل كيانه الأجتماعى ومهاراته

---

(١) نعمات أحمد فؤاد : شخصية مصر . الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٨) ص ٢٥٥

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف : مصر فى القرآن الكريم ، سلسلة إقرأ . دار المعارف بمصر . العدد ٣٧٣ ص ١١

ومعارفه إلا باعتماده على الأخرين . فتتعدد نماذج سلوكه وهذا يعنى أن الفرد لا يكتسب حصيلته المعرفية نتيجة مشاهداته المباشرة وتجاربه الخاصة فحسب ، وإنما بواسطة تعليم الأبوين خاصة ، وتعليم الآخرين بصفة عامة(١) ويمكن أن نتصور تلك الحقيقة من خلال الشواهد التى بين أيدينا والتى ترجع إلى ما قبل الدولة الوسطى حينما قام أحد الملوك بتعليم إبنه « مرى كارع » كيفية السلوك الإجتماعى وأساليب العبادة .

وفى الدولة الحديثة كتب « آنى » كتابا يتسع لكثير من الموضوعات التربوية تتضمن المسلك الأخلاقى فى المجتمع والمسلك العقائدى الدينى ، وسأحاول عرض بعض من فقراته .وهى تأتى فى النصوص التالية .

- كن كريما ولا تأكل خبزا حين يكون هناك أخر يتضور جوعا
- من الخير أن تبكر فى الزواج وأن يكون للشخص أطفال كثيرون .
- عامل زوجتك برعاية أن كنت تعرف أنها ممتازه .
- أعد لأمك كل مافعلته من أجلك وأعطيها المزيد من الخبز وأحملها كما حملتك ثقلا وحين ولدت بعد تمام شهورك حملتك على عنقها .
- كن وقورا حين تتناول طعامك واعتدل فى شرب الجعة
- غض النظر عما يجانب الصواب فى بيت أجنبى . فاذا رأته عينك . اسكت ولاتقله لغريب .
- إحترس من أن تكشف اسرارا وإن قالها رجل فى بيتك فتظاهر بالصمم .
- الفضيلة الرئيسية للمرء هى الحشمة والحياة .
- لاتبق جالسا حين يكون شخص أكبر منك سنا أو مركزا واقفا .
- لاتدخل منزلا أجنبيا مالم تكن مدعوا .
- لاتجاوب رئيسا غاضبا بل حاول تهدئته

1- David popenoe, op. Cit., p,p, 134-134

- لاتدخل المحكمه أو تخرج منها حتى لاينتن اسمك
- لاتضع ثقتك فى الغنى ولاتعتمد على الميراث .
- أحتفل بعيد إلهك . . إن الإله يسخط على من يهمل هذا الواجب .
التظاهر بالتقوى شئ ممقوت .
- صل من قلب مبتهل تظل فيه الكلمات مختفية .
- الإله يضع ما أنت فى حاجه إليه ويستمع إلى كلامك ويتقبل .

لقد وضع « آنى » مبادئ وأسس العلاقات القيمية فى مجالات الأسرة ، والعقيدة ، والعمل والمعاملات من أجل مجتمع فاضل . وبعد ذلك بحوالى ثلاثة أو أربعة قرون كان الخط الفكرى للتنشئه الإجتماعيه كماهو قائما وهو مايتضح من نصائح « آمون أم أوبى » إلى ابنه والتى تضمنها فى ثلاثين حكمة لاتخرج عن المعانى السابقة إلا أن أهميتها تأتى فى نصوصها التى ذكرت فى أمثال سليمان ، ومنها إلى الكتاب القدس .

وسأعرض بعض فقرات من هذه النصائح .

- الإنسان من تراب وقش ، وأن الاله هو الذى صنعه
- لاتقل ليست لى خطيئة إن الخطيئة من شأن الله وهو الذى يضع عليها خاتمه
- فى كل مشاجرة ومشادة مع أعدائك لاتضع كل ثقتك فى نفسك . بل إترك نفسك بين ذراعى الإله فصمتك (أى هدوءك) سيسقط أعداءك .
- لاتشترك فى أى مشادة مع شخص ثائر ، إن الإله يستطيع أن يجيبه على كلامه
- لاتغمس قلمك فى المحبرة حتى تؤذى شخصا آخر
- لاتغش فى المقاييس والأوزان ولاترتش .
- أقض بعدل ، ولاتظلم الضعيف لصالح الغنى .
- لاتطرد من كان ملبسه غير مناسب .
- لاتغش فى جباية الضرائب ، ولاتكن قاسيا فيها .
- إن جميع ماتفعله فى غير عدالة لن يجلب لك بركه .
- إذا جاءك أحد بثروة على طريقة اللصوص فإنها لاتبقى معك ليلة واحدة .

– كن رحيما فى كل شئ ، فلا تهزأ بالأعمى ولاتسخر من القميئ .
لاتسبب ضرا لمقعد ، ولاتزدر رجلا فى يد الإله (١)

لا أستطيع القول بأن هذه الفقرات تعكس كل ماصوره حكماء مصر الفرعونية من أساليب فى التنشئه الإجتماعية والتربية القومية والدينية ، ولكنى حاولت أن أبرز منها بعضا من الركام الهائل التى حفلت بها مأثورات هؤلاء الحكماء بما يتمشى مع دراستى المحدودة . ومع ذلك لم يكن المجتمع المصرى أيام الفراعنة – على كل حال – مجتمعا من الملائكه والأولياء الذين لايقترفون إثما أو يرتكبون سوءا ، ولن يتقدم المارق أو الخارج فى مجتمع أنّى كان . ولكن الحديث إنما يعالج صفة المجتمع الغالبة وخصائصه البارزة وتقاليده السائدة وموقفه من المارقين . تلك دعائم المجتمع المصرى من رفض الزلل والحملة على السوء ، حيث قامت من نفس المصرى فى موقع العقيدة التى الهمته القوة فيما حل به من ملمات ومانزل به من نوازل وخطوب فكانت له الذخيره التى أخرجته من المحنه بعد المحنه واجتازت به النكسة بعد النكسة(٢) ولنا أن نتصور موقف المصريين من الغزو العقائدى «الإغريقى» حينما حاولوا صبغة ديانتهم بصبغة مصرية والبسوها شكل ثالوث مقدس وقد نجحت الديانة الجديدة فى بادئ الأمر وفازت بعدد من الاتباع والانصار ولكن نجاحها الحقيقى يمكن قياسه بما أفلحت فى تحقيقه .

والحق أن المصريين كانوا يعبدون آلهة الثالوث المقدس باعتبارها آلهة مصرية وإن كانت فى ثوب إغريقى يدينون لها بالولاء كما أعتنق الإغريق بالتدرج ديانة الثالوث المقدس لأن آلهتها جاءت فى صورة إغريقية ولما كانت العقيدة الحقيقية للمصريين ظلت مختلفة عن عقيدة الإغريق فلا عجب ان لم تتحقق الديانه الجديدة الغرض المنشود منها ، وأستمر المصريون بشخصيتهم المستقله يمارسون الطقوس التى كانوا يألفونها ويتطلعون إلى الخلاص من مغتصبى أرضهم(٣)

---

(١) أدولف إرمان . المصدر السابق . ص ١٨١ – ١٨٣ .
(٢) احمد عبد الحميد يوسف . المصدر السابق . ص ٥٠ ، ٥١
(٣) الموسوعة المصرية : تاريخ مصر القديمة وأثارها . العصر اليونانى والرومانى . الهيئة المصرية العامة للكتاب . المجلد الأول هى ٤٤٣ ، ٤٤٤

وحينما أنتقل حكم مصر . إلى كنف الرومان إشتد اضطهادهم للكهنه المصريين. ولم يبق أمام المصريين إلا الشكوى لآلهتهم يستمدون منهم العون على الغاصب وهو ماتكشف عنه إحدى الوثائق عن صرخة أحد المصريين عاش فى القرن الثالث ق . م. يصف هول «الأغريق والرومان» الذين يحطمون ما هوكل مصرى وما هومقدس وفى نفس اللحظه يعبر عن ولائه لعقيدته ولألهته بقوله « سيحين الوقت الذى يبدو فيه أن مصر أكرمت آلهتها طيال هذا الزمن بدافع من ورعها وتقواها ، سيترك الآله هذه الأرض ويعودون إلى سماواتهم لأن الغرباء يملأون هذه البلاد وهذه الأرض . سيحرم علينا باسم القانون ، وتحت التهديه بالعقوبات الرادعة كل عبادة ونسك . وهكذا ستملأ القبور بالأموات فى هذه الأرض المقدسة التى كانت مهدا للهياكل والمعابد . أيا مصر . .! لن يبقى من كل صلاحك سوى أحجار صماء لن يؤمن بها أبناؤك ولن تبقى غير الفاظ منحوتة فى الصخر تحكى قصة أعمالك الصالحة » .

ومع أن الرومان هم الذين غزوا مصر إلا أن حضارة مصر ودينها استطاعا غزو الامبراطورية الرومانية بسرعة هائلة حتى أن شحاذى طرقات روما كانوا يطلبون الصدقة إكراما للإله إيزيس . واضطر الأمبراطور « أغسطس» إلى إصدار قانون يحرم إقامة إحتفالات مصرية فى ضواحيها .

لم يكن من المستغرب أن توجه روما عينها إلى مصر عند ظهور المسيحية وتنقل عنها العقيدة الدينية الجديدة فلم تنتشر المسيحية فى العالم إلا بعد انتشارها فى مصر واكتسابها الطابع المصرى ، حتى أنه يمكننا أن نقول ان المسيحية التى تعرفها اليوم ، هى فى الواقع المسيحيه التى حورت وتطورت فى مصر . وهكذا أخذت عن رسوم « إيزيس » والطفل « حورس » طريقة رسم العذراء والمسيح الطفل الذى كان فى أول الأمر يضع إصبعه فى فمه مثل « حورس » . وأخذت صورة صعود العذراء إلى السماء فوق الهلال عن صعود « إيزيس » فوق سفينة الشمس . واتخذ الصليب القبطى الأول مشكلة عن مفتاح الحياة المصرى القديم . والتزويج الإلهى أصله مصرى . وكذلك تفاصيل البشارة والحمل بدون إثم وولادة وتعبد وإهداء

(١) تشارلز وورث : الإمبراطورية الرومانية . ترجمة رامز عبده جرجس . دار الفكر

هدايا . وظهور الإله فى جسد بشرى وقتله وقيامه من الموت توجد كلها فى قصة « أوزريس » . والفداء أصله مصرى فالالهة الأربعة : أمست وهيبى وسموتيف وستوف الذين كانوا يتوسطون روح الميت ويدافعون عنه كانوا يقدمون أنفسهم أيضا كفداء للميت والاعتراف بالخطايا إبتدعه الملك « أما ريس » آخر ملوك الأسرة « ٢٦ » وكان واجبا على كل فرد مرة كل سنه . . الخ .

لقد بلغ من شهره المسيحية المصرية ان طلبت كنائس القسطنطينية فى القرن الرابع أيضا بعض عظام الشهداء المصريين لتوضع بها . وحينما وصلت هذه الرفات وقف أسقف القسطنطينية « كريستوسوم » يقول : أشكر الله لأن مصر التى أرسلت قمحها لتطعم جيرانها الجوعى ، أمكنها أن ترسل لهم أيضا عددا كبيرا من الشهداء لتطهر كنائسهم .

لقد قام الصراع بين الاسكندرية والقسطنطينية حينما صارت عاصمة الامبراطورية الشرقية حول القيادة الدينية ، وأنضمت الكنيسة الاغريقية عن القسطنطينية والكنيسة الرومانية للاسكندرية وبالتدرج إنفصلت الكنيسة الاغريقية عن القسطنطية وضاعت سلطة الأمبراطورية الشرقية فى أوربا وانفصلت الكنيسة القبطية عن الرومانية سنة ٤٥١ . م وهى التى ورثت العقائد المصرية المسيحية لتبشر بها وبدأت تحدد القيود والرموز والتقاليد . وجاء الفتح الإسلامى سنة ٦٤٠ . م فزاد القبطية المصرية تقاليدا ورمزية

لقد جاء الفتح الإسلامى فى مصر ليحمل المعانى السمحة لأهل الذمة من اليهود والمسيحين المقيمين بأرض مصر فلم يفرض قيودا على حرياتهم الدينية وتقاليدهم بل حافظ على ممارسة هذه الحريات وهذه التقاليد .

والواقع أن أهمية التقاليد كعامل من العوامل القوية فى تماسك الجماعة يرجع إلى أنها تجسيم لأنواع من القيم والمعتقدات القديمة المتوارثة المتأصلة فى النفوس منذ أجيال عدة ، والمنتشره فى جو الجماعة الخاصة والذائعة بين أفرادها .

---

(١) فتحى عثمان . المصدر السابق . ص ٤٢٥ — ٤٢٧

ونجد مظاهرها واضحة فى تلك المناسبات التى عرفها الفراعنة ومازالت تمارس فى المجتمع المصرى . ويصور لنا المقريزى أحد هذه المظاهر فى الدولة الفاطمية التى كانت تحتفل بعيد « النيروز » الذى أخذ به المسيحيون عن الفراعنه فكان يشارك فيها الأمراء وتعطل فيه الأسواق ويقل سعى الناس فى الطرقات وتفرق فيه الكسوه على رجال أهل الدولة وأولادهم ونسائهم(١) وفى عصر المماليك كان الاحتفال بعيد النيروز يأخذ شكل الاحتفالات القومية . وينهض دليلا على قوة العلاقات الإجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة فى مصر العصور الوسطى — وحتى الآن — أن بعض المواسم والأعياد الخاصة بأهل الذمة اتخذت طابعا شبه قومى على حد التعبير المعاصر . وقد ارتبطت بعض تلك الأعياد بنهر النيل مما يشير إلى جذورها الممتدة إلى أيام قدماء المصريين ، كما شارك المسلمون أهل الذمه فى بعض الأعياد الأخرى بمظاهر المجاملة وتبادل الأطعمة والحلوى وغيرها من الهدايا .

لقد كان نهر النيل أحد العوامل التى جمعت بين أفراح المصريين وقلقهم . فكان فيضه خيرا . وعجزه مصدرا للقلق مما كان يدفع بالمصريين من يهود ومسيحيين ومسلمين إلى صحراء مصر يحملون الكتب المقدسة ويبتهلون إلى الله بان يجرى مياه النيل(٢) .

الطائفية والشخصية المصرية :

يذكر « جورج يونج فى كتابه مصر» عند حديثه عن الأقباط والمسلمين . أن تاريخ الإقباط يكشف عن أنهم عانوا ضيقا من أهل دياناتهم المسيحيين الأرثوذكس أو الكاثوليك أكثر مما عانوا من أهل وطنهم المسلمين . وأنه من المثير للفضول أن يلاحظ أن العلاقة بين العنصرين تظهر أوثق ما تكون فى المناسبات الدينية ، إذ يبنى الأقباط مساجد المسلمين ، كما يعيد المسلمون بناء الكنائس القبطية . ويشترك الشيوخ والقسس فى الاحتفالات الدينيه وما بقى من مظاهو الديانات القديمة .

---

(١) المقريزى — تقى الدين أحمد بن على : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . بولاق (١٢٧٠ هـ) الجزء الأول . ص ٤٩٧ ، ٤٩٨

(٢) قاسم عبده قاسم : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى. دارالمعارف بمصر١٩٧٧ ص١٦٠،

لقد ذكرت صحيفة « الوطن » القبطية فى (مايو ١٩١٦) انه كان للاقباط قديما رواقا قديما بالأزهر يتلقون فيه العلوم المنطقية والشرعية . وأن من درسوا بالأزهر انتقل بعضهم إلى دار العلوم(١). ويجدر بنا فى هذا المقام ان نشير إلى ما ذكرناه فى السطور السابقه لا يعنى بأى حال من الأحوال ان روح الوئام والوفاق الاجتماعى سادت بين المسلمين وأهل الذمة فترة الحضارة الإسلامية فان ذلك يبعد عن الحقيقة إلى حد كبير فالواقع أن حوادث المشاحنات بين الفريقين قد حدثت فى بعض الأحيان لتعكر صفو العلاقات بين بعضهم ولكن تلك الحوادث اتخذت طابعا فرديا لا يمكن ان تقلل من قيمة الحقيقة بأن العلاقات الإجتماعية بين المسلمين وأهل الذمه كانت طبيعيه ومن أمثلة تلك الحوادث حادثة أغتيال «بطرس غالى»رئيس وزراء مصر على«يد إبراهيم الوردانى» (١٩١٠) ، فقد عقد الحزب الوطنى إجتماعا عقب الحادث حضره ممثلى الطوائف المسيحيه والاسلامية ، وأعلنت استنكارها للحاد وان ما حدث كان عملا فرديا بعيدا كل البعض عن الدين(٢) وهو ما أكده الحانى أثناء محاكمته وبرره بأسباب سياسيه هذا الحادث أجده متماثلا تماما مع مقتل يوسف وهبى الذى رأس وزارة مصر فى الفترة ما بين ١٩١٩ — ١٩٢٠ على يد طالب قبطى بكلية الطب فى ديسمبر ١٩٢٠ والذى اعترف بارتكابه الحادث لدوافع وطنية

وعلى الرغم من الدوافع السياسية وراء الحادثين فقد حاول الاستعمار البريطانى فى تلك الفترة ان يستفيد من مقتل بطرس غالى باثارة النعره الطائفية ولكن الوحدة الوطنية كانت أقوى من أساليب الفتن وكان أقوى مبرر على وحدة الشخصية المصرية أن يتولى رئاسة الحكومة المصرية مسيحيان شانهم فى ذلك شأن المسلمين . وهذا ما يعكس حقيقة الوحدة الوطنية(٣) .

---

(١) طارق البشرى . المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٨٠) ص ٤٢ ، ٤٣

1- Madame Jaliette Adam, L'Angletterre ed Egypte paris p 291,

(٣) طارق البشرى . المصدر السابق . ص ١٥٦ ، ١٥٧

إن جوهر الدين فى مصر وفى كل عصورها ، واحد . فالوثنية المصرية القديمة فى جوهرها الأصلى ادراك للعقيدة وقد وصل الخاصة عندهم إلى التجريد وإلى فكره الإله الواحد . وعلى الديانة المصرية القديمة قامت عادات وتقاليد اجتماعية لازمت المسار التاريخى للعقائد الدينية اليهودية والمسيحية ، وأقر بعض ولاة مصر فى ظل الديانة الإسلامية وعلى العقائد بين أرض الوادى تشكل الوجدان المصرى بعقائده ومصريته ، فقد مزج المناخ التاريخى والحضارى والاجتماعى والثقافى والنفسى ليبلور المفهوم القومى للشخصية المصرية التى واجهت التيار الإوربى الزاحف خلف شعار الصليب على أرض مصر وتصدت للغزو الفرنسى والبريطانى . وتحدت الإعتداء الثلاثى البريطانى الفرنسى الإسرائيلى على قناتها .

لقد اسهمت العقائد والأفكار وأسلوب التنشئة الإجتماعية والعلاقات الإجتماعية الطيبة وطبيعة الوادى الجغرافية والاقتصادية والسياسية فى تشكيل الطابع القومى للشخصية المصرية وهو طابع الإنسانية والسلام .

قدم هذا البحث ونوقش فى ندوة الوحدة الوطنية فى مصر عبر التاريخ بجامعة المنيا . فى الفترة من ١٩ إلى ٢١ ديسمبر ١٩٨١